ذاكرة العرب

دورية علمية مُحكّمة – العدد الخامس – ٢٠٢١

ISSN 2735-4210

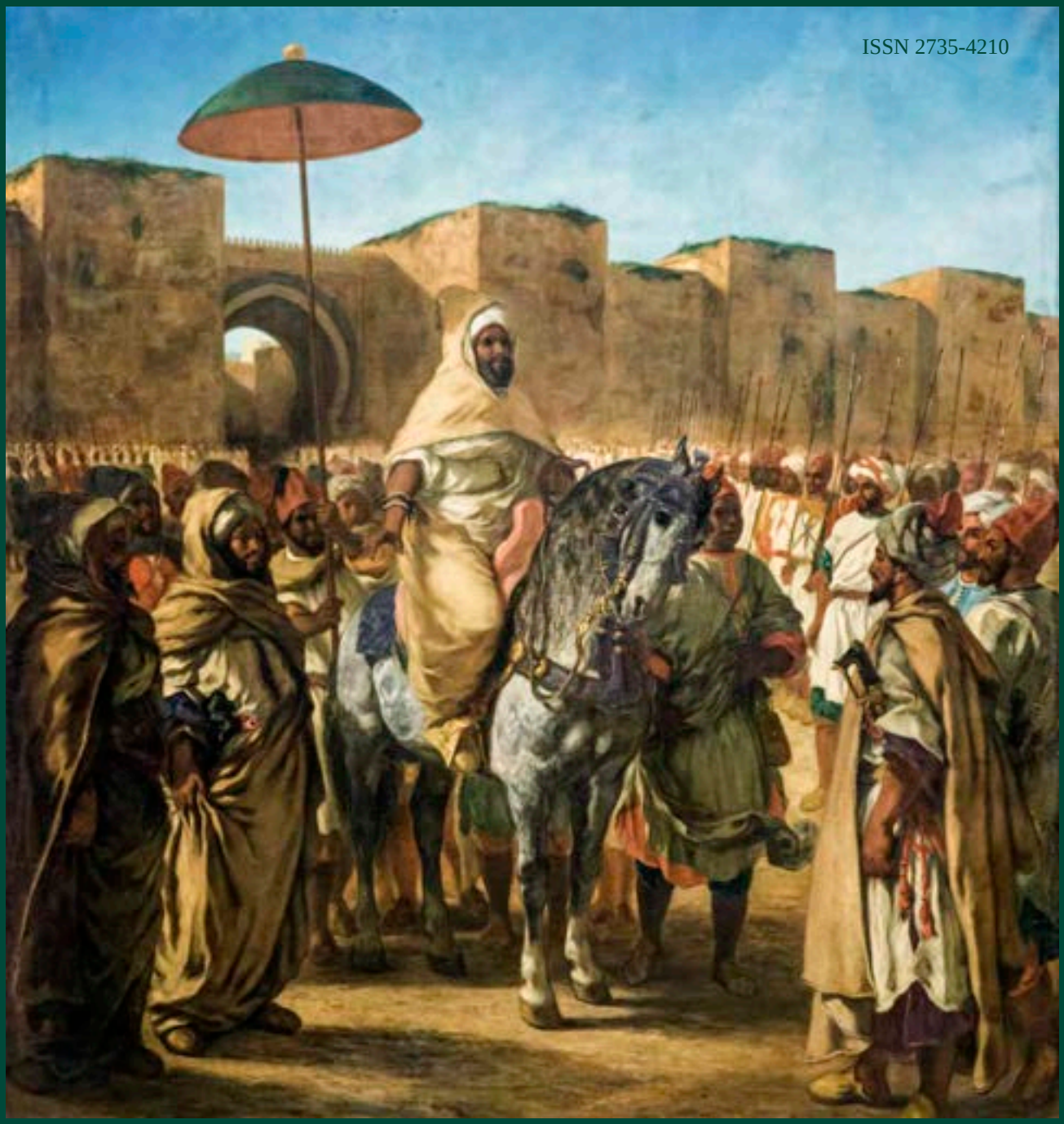

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الذاكرة العربية

دورية علمية مُحكّمة

مركز دراسات الحضارة الإسلامية
Center for Islamic Civilization Studies

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء - النشر (فان)

ذاكرة العرب. - ع5 (2021) - . - الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، قطاع البحث الأكاديمي، مشروع ذاكرة العرب، 2021.

مجلدات ؛ سم.

ربع سنوي

ردمد 2735-4210

1. العرب-- تاريخ-- دوريات. 2. الثقافة العربية-- دوريات. 3. الحضارة العربية -- تاريخ -- دوريات. 4. الدول العربية-- تاريخ-- العصر الإسلامي-- دوريات. 5. الدول العربية -- تاريخ-- دوريات. أ- مكتبة الإسكندرية. قطاع البحث الأكاديمي. مشروع ذاكرة العرب.

ديوي – 909.04927 2020424354276

ISSN 2735-4210

© مكتبة الإسكندرية، ٢٠٢١.

الاستغلال التجاري

يحظر إنتاج نسخ متعددة من المواد الواردة في هذه الدورية، كلها أو جزء منها، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية. وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذه الدورية، يُرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص.ب. ١٣٨، الشاطبي ٢١٥٢٦، الإسكندرية، مصر.

البريد الإلكتروني: secretariat@bibalex.org

طُبِع بمصر
١٠٠٠ نسخة

الإشراف العام

أ . د . مُصْطَفى الفِقي
مدير مكتبة الإسكندرية

رئيس قطاع البحث الأكاديمي

د . مَرْوَة الوَكِيل

رئيس التحرير

د . مُحَمَّد الجَمَل

هيئة التحرير

د . رَضْوَى زَكِي

المراجعة اللغوية

د . مُحَمَّد حَسَن

فَرِيدَة صُبِيح

مراجعة التنسيق

مَرْوَة عَادِل

معالجة النصوص

سَمَاح الحَدَّاد

التصميم الجرافيكي

مَهَا رِفْعَت

الإسكندرية، ٢٠٢١

مجلة ذاكرة العرب دورية علمية مُحكّمة تهتم بالتراث الثقافي والتاريخي والحضاري للبلدان العربية والإسلامية، وتهدف إلى التأكيد على أهمية استعادة الذاكرة العربية للحاضر العربي الراهن، وتصدر عن مشروع «ذاكرة العرب» بقطاع البحث الأكاديمي بمكتبة الإسكندرية.

الهيئة الاستشارية

أ. د. أشرف فراج (مصر)

أ. د. ألبرشت فوس (ألمانيا)

أ. د. أيمن فؤاد سيد (مصر)

أ. د. حسام الدين شاشية (تونس)

أ. د. حسن محمد النابودة (الإمارات)

أ. د. حسين العمري (اليمن)

أ. د. خالد زيادة (لبنان)

أ. د. خوسيه ميجل بوريتا فيلجاز (إسبانيا)

أ. د. ديفيد نيكول (إنجلترا)

أ. د. سليمان الذييب (السعودية)

أ. د. صلاح جرار (الأردن)

أ. د. عبد الرحمن السالمي (عمان)

أ. د. عبد القادر بوباية (الجزائر)

أ. د. عبد الواحد ذنون طه (العراق)

أ. د. محمد أبطوي (المغرب)

أ. د. محمد أمين ولد آن (موريتانيا)

أ. د. مصطفى موالدي (سورية)

أ. د. نيقولا ميشيل (فرنسا)

قواعد النشر

- ترحب المجلة بنشر البحوث الجديدة في كافة مجالات دراسات التراث الثقافي والتاريخي والحضاري للبلدان العربية والإسلامية.
- يجب أن يتسم البحث بالأصالة والابتكار والمنهجية، وأن يكون البحث جديدًا ولم يُنشر من قبل بأي صورة من صور النشر، وغير مستلٍّ من كتاب أو رسالة جامعية (ماجستير، دكتوراه).
- يتراوح عدد كلمات البحث بين ٢٠٠٠ و٢٥٠٠ كلمة.
- يُستخدَم خط Traditional Arabic للبحوث باللغة العربية بحجم ١٦ للمتن، و١٤ للهوامش، ومسافة واحدة بين السطور.
- يُستخدَم خط Times New Roman للبحوث باللغة الإنجليزية بحجم ١٤ للمتن، و١٢ للهوامش، ومسافة واحدة بين السطور.
- توضع الهوامش والإحالات في نهاية البحث إلكترونيًّا، ويكون تسلسل أرقام الهوامش متتاليًا متسلسلًا في البحث.
- يرفق قائمة بالمصادر والمراجع في نهاية البحث.
- يراعى اتباع منهجية النشر وقواعد كتابة المصادر والمراجع المتبعة في مكتبة الإسكندرية، ويلتزم الباحث بإجراء أي تعديلات ببليوغرافية حال طلبها.
- يرسل الباحث السيرة الذاتية مختصرة، ومزودة ببطاقة الهوية وبيانات اتصال كاملة.
- تحكيم الأبحاث سري ومعد على نموذج يخضع للمعايير العلمية الأكاديمية، وقرار إجازة البحث للنشر أو رفضه هو قرار نهائي. في حال الإجازة مع التعديل، يلتزم الباحث بإجراء التعديلات المطلوبة وفق المدة المحددة.

التواصل وإرسال الأبحاث عبر البريد الإلكتروني للمجلة:

arabmemory.journal@bibalex.org

الفهرس

مخطوطات الفروسية المملوكية المزينة بالتصاوير «كتاب المخزون جامع الفنون أنموذجًا» (٨٧٥ هـ/ ١٤٧٠ م) ٧

د. محمد إبراهيم عبد العال

مصادر تاريخ الفروسية في العصر المملوكي (٦٤٨ – ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧ م) ٤١

د. شيرين القباني

تكتيكات الحصار في عصر دولة المماليك البحرية بين النظرية والتطبيق (٦٤٨ – ٧٨٤ هـ/ ١٢٥٠ – ١٣٨٤ م) ٥٩

د. محمد فوزي مصري رحيل

التأثيرات الوافِدة على أدوات ومعدات الحرب خلال العصر المَمْلُوكِيّ (٦٤٨ – ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧ م) ٨٣

د. علاء مصري النهر

الملابس الحربية الواقية من المواد الحارقة في العسكرية المملوكية (٦٤٨ – ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧ م) ٩٩

د. أحمد محمد عطوة

تقنيات صناعة الملابس العسكرية المملوكية وإمكانية استخدامها لاستنباط نماذج لعمل متحف للأزياء العسكرية التاريخية ١١٣

د. إبراهيم حامد محمد الخولي

م. ريهام عبد العزيز الطنطاوي

التأثيرات الوافِدة على أدوات ومعدات الحرب خلال العصر المَمْلُوكِيّ (٦٤٨ – ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧ م)

د. علاء مصري النهر

التأثيرات الوافِدة على أدوات ومعدات الحرب خلال العصر المَمْلُوكِيّ (٦٤٨ – ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧ م)

د. علاء مصري النهر *

ملخص

أسهمت التأثيرات الوافِدة والحديثة في فنون الحرب كثيرًا في بقاء دولة سلاطين المماليك كقوَّةٍ عظمى، فحرَّرت إمارتَي أَنْطاكيَّة وطَرابُلس من أيدي الفِرِنْج، وقضت نهائيًّا على آخِر معاقلهم في عَكّا سنة ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م، كما تصدَّت لجحافل المغُول بقيادة (كَتْبُغا في ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م، ومحمود غازان في ٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩ م، وتَيْمُورلَنْك في ٨٠٣ هـ/ ١٤٠١ م)، لكنْ لمّا أبَى المماليك الجَراكسة إبّان حكم السُّلْطان الأَشْرَف قانصوه الغُورِيّ (٩٠٦ – ٩٢١ هـ/ ١٥٠١ – ١٥١٦ م) إدخال الأسلحة الناريَّة «المتطورة» التي يستخدمها العثمانيون في حروبهم، وتمسكوا بالسَّيف والرُّمح في حروبهم ضد العثمانيين لأسبابٍ دينية، من أبرزها خشيتهم محاربة العثمانيين «المسلمين» بالنّار، ذهبت ريحُهم في معركتَي مَرْج دابِق والرَّيدانيَّة، ليس بسبب «القضاء والقدر» فحسب، وإنما أيضًا بسبب عدم أخذهم بما هو جديدٌ ومتطورٌ في عالَم الأسلحة. فلعلَّ مثلَهم كمثل الفارِس دون كيخوته، حارب طواحين الهواء بسيفه، فكان المآلُ أنْ حصدتهم مَدافِعُ العثمانيين حصدًا، وأفلت شمسُ دولتهم بلا رجعةٍ.

مقدمة

إنَّ دولة سلاطين المماليك دولةٌ حربيةٌ بامتياز؛ إذ فرضت عليها الظروفُ المحيطة بها وقتئذٍ ذلك، بوجود الفِرِنْج في سواحل الشّام، وتزايد الخطر المَغُولي بفارس والعراق وعلى تخوم الشّام. ولكون دولتهم اعتمدت على العناصر الوافدة من القِبْجاق[١] والجَراكسَة في تشكيل جيشها؛ فالجُند «هم زَهرَةُ المملكة وبهجتُها»[٢]، كان من المحتم أنْ تتأثر بفنون الحرب القادمة مع هذه العناصر، ومع غيرها كالمُغُول.

لقد كان للظروف التي مرَّ بها الملك الصّالح نَجْم الدِّين أَيُّوب (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م) قبل توليه السَّلْطَنَة دورٌ كبيرٌ في إكثاره من شراء مماليك، كانوا نواةً أُولى لدولة سلاطين المماليك بمِصْر والشّام، بعد انتصارهم على الفِرِنْج في المَنْصورَة، وأسرهم ملك فرنسا لويس التاسع (Louis IX) في موقعة فارَسْكُور سنة ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م[٣]؛ فحلَّت دولتُهم محلَّ دويلات بَني أَيُّوب في مِصْر والشّام، واستمدَّت كثيرًا من نُظمها من هذه الدويلات، بَيْدَ أنَّها تميَّزت في نُظمها العسكرية عامَّةً، وفي فنون الحرب خاصَّةً، ببعض التأثيرات الخارجية الوافِدَة، على النحو التالي:

أولًا: أهم التأثيرات الوافِدة

لقد تعدَّدت التأثيرات الوافِدة على الجيش المملوكي، ففي رسالة التهديد التي أرسلها السُّلْطان الظّاهر سَيْف الدِّين بَرْقُوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ/ ١٣٨٢ - ١٣٩٨ م) إلى تَيْمُورلَنْك (ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٥ م) سنة ٧٩٢ هـ/ ١٣٩٢ م ما يدل على ذلك؛ إذ قال فيها: «نحنُ خيولُنا برقيَّةٌ، وسِهامُنا عربيَّةٌ، وسُيوفُنا يَمانيَّةٌ، ولبُوسُنا مِصْريَّةٌ»[٤].

ومن أهم هذه التأثيرات:

أ- تأثيرات النشأة الأولى

لم يبدأ المماليك وظائفَهم العسكرية وكأنهم صفحةٌ بيضاءُ لا أثر فيها لثقافاتهم الخاصَّة؛ إذ وصل معظمهم وهم مراهقون أو شُبّان، فكان لزامًا أنْ يكون لخلفياتهم الثقافية أثرٌ واضحٌ فيهم وفي المجتمع الإسلامي الذي يعيشون فيه[٥].

كان للنشأة الأُولى لهؤلاء المماليك تأثيرٌ جليٌّ على أسمائهم، فهي تدلُّ على الجَلادة والقوَّة في الحرب، وذلك من خلال ما ألفوه وجاوروه في طفولتهم، فأكثر ما يُسمَّون باسم مفردٍ مثل «بَغا»، ومعناه بلُغة التُّرْك «الفحل»، أو أنْ يكون الاسم موصوفًا بحيوانٍ من الحيوانات، مُقدِّمين الصفة على الموصوف على قاعدة لغتهم في ذلك مثل «طيبَغا» بمعنى «فحلٍ مُهْرٍ»، أو بمعدنٍ من المعادن مثل «الطنبَغا» بمعنى «فحلٍ ذهبٍ»، و«كمشبَغا» بمعنى «فحلٍ فضة»، و«تمربَغا» بمعنى «فحلٍ حديدٍ». وربما أبدل اسم «الفحل» باسم «الحديد»، واسمه بلغتهم «دُمُر» مثل «بي دُمُر» بمعنى «أمير حديد»، و«طي دُمُر» بمعنى «مهر حديد». وربما أفردوا الاسم بالوصف مثل «دُمُر» بمعنى «حديد»، و«أرسلان» بمعنى «أسد»، و«تُنكُز» بمعنى «بحر»، وغير ذلك؛ فقد راعوا في التسمية «ما يدور في خِزانة خيالهم مما يخالطونه ويُجاورونه»[٦].

وللطبيعة القاسية التي كان فيها المماليك قبل قدومهم إلى الشّام ومِصْر، وحرمانهم من حنان الوالدين، اتَّبعوا في حربهم سياسة «الأرض المحروقة» Scorched-earth القائمة على القسوة والبطش، وحرق المزارع والبيوت بمَنْ فيها؛ فهم يدمرون ويحرقون ويقتلون الرجال بلا هوادة؛ ليحرموا خَصمَهم من الانتفاع بأيِّ شيءٍ، فقد قام الظّاهر بيبَرْس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ/ ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) بذلك عندما حاصر إمارة طَرابُلُس سنة ٦٦٦ هـ/ ١٢٦٨ م؛ إذ خرَّب المُرُوج المجاورة بها، وقطع أشجارَها، وغوَّر أنهارَها، وهدم كنائسَها[٧]. وعندما سار محمود غازان بن أرغون (٦٩٥ - ٧٠٣ هـ/ ١٢٩٥ - ١٣٠٤ م) بجُمُوعٍ عظيمةٍ من المُغُول، واستولى على دِمَشْقَ سنة ٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩ م بعد انتصاره في وقعة وادي الخَزْنَدار[٨]، احتمى مُتولِّي قَلْعَة دِمَشْق الأميرُ عَلَم الدِّين سِنْجر أُرْجَواش المَنْصُوريّ (ت ٧٠١ هـ/ ١٣٠١ م) بالقلعة، وأمر بإحراق الدُّور والمَدارس وغيرهما من الأماكن المهمة التي تحتها؛ لئلا ينتفع بها المُغُول[٩].

وكانت عِدَّة الفرس الذي يمتطيه الفارس المملوكي مشابهةً لتلك التي تستخدمها شعوب السهوب الأوراسية Eurasian Steppe الذين كان منهم بعض المماليك، ففي واقع الأمر يُؤكِّد تاريخ عِدَّة الفرس في مناطق السهوب التأثيرات القوية والمتبادلة بين الصين والعالم الإسلامي إبّان الدولة المملوكية[١٠].

كما اهتمّ المماليك بتدريب جنودهم قبل المعارك على استخدام الرُّمح؛ فقد ذكر ابن تَغْري بِرْدِي - المتوفى سنة ٨٧٤ هـ/ ١٤٧٠ م، والحاذق في لعب الرُّمح - أنَّه في شَعْبان سنة ٦٨١ هـ/ نوفمبر ١٢٨٢م أحدث مماليك السُّلْطان المَنْصُور قَلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ/ ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) «القفچاق»، طريقةً جديدةً للَّعب بالرُّمح في سوْق المَحْمَل بمَيْدان بُولاق، ثُمَّ فضَّل عليهم مماليك السُّلْطان الظّاهر بَرْقُوق «الجراكسة»؛ إذ أحدثوا أشياءَ جديدةً في هذا الفنِّ، و«صار فيهم مَنْ يُضرَب بلعبه المَثل»، فغيَّروا من طريقة القبض على الرُّمح في مَواطِنَ كثيرةٍ من اللَّعب[١١].

وعندما احتفل السُّلْطان المُؤَيَّد شَيْخ المَحْمُودِيّ (٨١٥-٨٢٤ هـ/ ١٤١٢ - ١٤٢١ م) بسوْق المَحْمَل سنة ٨٢٣ هـ/ ١٤٢٠ م، ولعب المماليك الرَّمّاحَة، وكذلك لعب المُعلِّمون أمام السُّلْطان، بلغ من ارتياحه أنَّه أمر بإقامة حفل للعب الرُّمح يومي السَّبْت والثلاثاء من كُلِّ أسبوع، فيلعب مُعلِّمان هما وصبيانهما مُخاصَمَةً رياضيةً، فيقف المُعلِّم يَمينًا وإلى جانبه يقف صبيانه صفًّا واحدًا، ويقف تجاهه مُعلِّمٌ آخرُ وصبيانه معه، ويبلغ عدد كُلِّ فريق خمسة أفراد، فيخرج المُعلِّم للمُعلِّم للمبارزة، ثُمَّ يخرج نائب المُعلِّم لنائب المُعلِّم الذي يقابله، ثُمَّ يخرج سائر أفراد كُلٍّ من الفريقين للمبارزة الفردية، ويستمر هذا اللعب من الظهر إلى العصر عادةً، والناس يشهدون ويرفعون أصواتهم تشجيعًا لهذا أو ذاك من المتبارين[١٢].

ب- تأثيرات إفرنجيَّة ورومِيَّة

لقد أخذ جيش سلاطين المماليك من روح العصور الوسطى عامَّةً - سواء في الشرق أم الغرب - بعضَ النواحي التكتيكية؛ فيوم السَّبْت له تشكيلات معينة ووقت محدد للتَّحرُّك، ويوم الأحد كذلك... إلخ. ومن المُلاحَظ أنَّ غالبية معارك الجيش المملوكي كانت تقع إما صباحًا قبل اشتداد أشعة الشمس، وإما عصرًا؛ تفاديًا لوقوع أشعة الشمس على الخِوذ والأسلحة، وانعكاسها على العيون، فتَكِلُّ عن النَّظر، وقد تؤثر في بعضها إلى حدِّ العَمى؛ لذلك كانوا يخرجون إلى بلاد الشّام للحرب عندما تنتقل الشمس إلى برج الحَمَل في أوائل فصل الربيع والجوُّ معتدلٌ، إلّا أنَّ السُّلْطان قانصوه الغُوريّ سافر في شدَّة الحَرِّ والشمس عموديةٌ على السرطان؛ فحصل لعسكره مشقةٌ شديدةٌ في الطريق[١٣].

واستعمل الجيش المملوكي قذائف النّار الإغريقيَّة (Grecian Fire)[١٤] في حروبه، مع إحداث بعض التطويرات عليها، خاصَّةً في معركة المَنْصُورَة سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م، فكان لها مفعولُ السِّحر في هزيمة جيش لويس التاسع، الذي قال لمّا رأى قذائفها المتسارعة:

"My God, preserve me and my troops!".[١٥]

كما أنَّ استخدام المماليك للرُّنُوك التي تمثل الصفات الحربية للمقاتل - كرَنْك الظّاهر بيبَرْس على شكل سَبُعٍ[١٦] - كان مستوحًى من الأيُّوبيين والفِرِنج[١٧].

واستخدم الجيش المملوكي حِيلَ التَّظاهر بالارتداد، المعروفة بتعبية «حَوْض النَّجاة»[١٨] (شكل ١)، وقد اتَّبعت جيوشُ الفِرِنْج هذه المناورةَ في حروبهم، فاستخدمها المماليك باستمرار وبطرائقَ مختلفةٍ، وكان ارتدادُهم في بعض الأحيان يستغرق عِدَّةَ أيامٍ؛

(شكل ١) من كتاب «التَّعابي الحربيَّة» لابن مَنْكَلِيّ، ص ١٩٧.

حيث يقصدون من وراء ذلك إنهاك الخَصم واستدراجه بعيدًا عن قواعده، فكانوا يلجئون إلى هذه الحِيل بالتخطيط والتصميم بعمل كمائنَ أعدُّوها سابقًا، فيلجئون إلى مجموعة الخيّالة لإغراء الخَصم بالهجوم، وعندما يتحرك الخَصمُ لمهاجمتهم، تستدرجه هذه المجموعةُ المُضلِّلة والتي تناوش الخَصم حتَّى يصبح أحد جانبيه أمام القوة الرئيسية لقواتهم، والتي تبقى مختفيةً حتَّى اللحظة الحاسمة التي تستطيع فيها أن تفاجئه وتنقضَّ عليه[١٩].

استخدم جيش المماليك المَكاحِل أو المَدافِع[٢٠]؛ لرمي السِّهام العِظام والحجارة الصلدة والنِّفْط، وقد أخذها المماليك عن الرُّوم. وفي سنة ٨٤٠ هـ/ ١٤٣٦ م أصبح لدى الجيش المملوكي المَدافِعُ التي تجرها العجلات، وكانت تُصنَع من النُّحاس والرّصاص، ويصل مدى قذفها بعيدًا، وكانت هذه المَدافِع تَرمِي قوارير النِّفْط، وبعضها يرمي بأسهم عِظام تكاد تخترق الصخر من قوَّتها[٢١].

كما استخدم المَماليكُ القُنْطاريّات[٢٢] المشابهة للرِّماح في الرِّماية، واستخدمها قبلهم الفِرِنْج والرُّوم في حروبهم[٢٣].

وبرغم الأعداد الكبيرة من الأسرى الفرنج الذين وقعوا بأيدي المسلمين خلال المعارك التي نشبت بينهما إبّان القرن السابع الهجري (١٣م)، فإنَّه من النادر جِدًّا أنْ أصبح واحدٌ منهم من المماليك، أو عمل واحدٌ منهم بالجيش المملوكي، وإنما استُخدموا في بناء المنشآت العسكرية والدينية، كما عملوا في بناء السدود التي تتحكم في فيضانات النِّيل في سبعينيات القرن الثامن الهجري (١٤م). وفي الوقت نفسه كانت انتصارات المماليك تجلب أسرى جُددًا من الأوروبيين، فبالإضافة إلى أولئك الذين أسرهم المماليكُ بأنفسهم، وصلت إليهم أيضًا بضعةُ أعدادٍ من الأوروبيين كهدايا دبلوماسية، ووصل إليهم كذلك بعض أُسارى الفِرِنْج من معركة نيكوبولس سنة ٧٩٨ هـ/ ١٣٩٦ م. وفي سنة

٨٢٣ هـ/ ١٤٢٠ م التقى الرَّحّالَة الإيطالي إيمانويل بيلوتي Emmanuel Piloti في مِصْر بحوالي ٢٠٠ أسير فرنسي وإيطالي، كانوا قد اعتنقوا الإسلام، وتقلّدوا أعلى المناصب بالجيش المملوكي. ومع ذلك، بقي مثل هؤلاء المماليك الغربيين قِلَّةً، وظلوا موجودين حتَّى نهاية القرن التاسع الهجري (١٥م). وفي «رحلة حَجِّه» ذكر الفارس الألماني أرنولد فون هارف (Arnold von Harff)، الذي زار مِصْر ما بين سنتَي ٩٠١ و٩٠٤ هـ/ ١٤٩٦ و١٤٩٩ م، أنَّه قابل مَلوكَين أوروبيين مخمورَين في القاهِرَة، واحدًا منهما سويسري اسمه كونراد من بازل، والآخر دنماركي. وكان من آثار وجود هؤلاء الأوروبيين ووصولهم إلى بعض المناصب الرفيعة في الجيش المملوكي أن انتشر شُرْبُ الكحول بين جُند الجيش المملوكي على نطاقٍ واسعٍ في أواخر القرن التاسع الهجري (١٥م)[٢٤].

ج- تأثيرات مُغُوليَّة

مع هجرة طوائفَ وأقوام من الأجناس التي كانت خاضعةً للمغول منذ عهد الظّاهِر رُكْن الدِّين بِيبَرْس، ومن بينها طوائفُ مُغُوليَّة؛ بسبب الحروب الناشبة بين بعض خانات المُغُول ببعض، التحق هؤلاء بالجيش المملوكي، وجلبوا معهم نُظمَهم وعاداتهم، وأثروا تأثيرًا كبيرًا في فنون الحرب والقتال. وأطلق على مَنْ قَدِمَ من هذه الطوائف المُغُوليَّة إلى مِصْر خلال العصر المملوكي الأول اسم «الوافديَّة» أو المُستأمَنين، وارتبط كثيرٌ منهم بالمماليك عبر المصاهرة[٢٥].

فأدخل الظّاهِر بِيبَرْس وظيفة «رأس نوبة الأمراء» التي ترجع أصولها إلى المُغُول[٢٦]، إلى الوظائف والرُّتب العسكرية، وقد كانت مهمته تتمثل في التَّحدُّث إلى مماليك السُّلْطان أو الأمير، وتأديبهم وتعليمهم وتقويم اعوجاجهم، وعن طريقه أيضًا تأتي جميع الأخبار إلى السُّلْطان، كما استحدث الظّاهِر بِيبَرْس وظيفة «أمير سلاح»[٢٧] الذي يتولَّى أمر سلاح السُّلْطان، ويناوله آلة الحرب في المعارك[٢٨].

اللافت للنظر أنَّ كثيرًا من أساليب التدريب والتأديب كانت لا تخرج عن التقاليد المعروفة عند المُغُول المعمول بها في «الياسَة» Yāsa، فالظّاهِر بِيبَرْس كان يسير على أغلب أحكامها، فمَن أطعم أسيرَ قوم أو كساه بغير إذنهم قُتِل، ومَنْ وجد أسيرًا قد هرب ولم يردَّه قُتِلَ، ومَنْ وقع حِمْلُه أو قَوْسُه أو شيءٌ من متاعه، وهو يكرُّ أو يفرُّ في المعركة، وكان وراءه أحدٌ، فإنَّه ينزل ويناول صاحبَه ما سقط منه، وألزمهم ألا ينفرد أحدٌ من الجُند بأكْل شيءٍ وغيرُه يراه، بل يُشْركه معه في أكْله، وسار الظّاهِر بِيبَرْس على هذا النَّهج فيما يتعلق بعلاقات الجُند مع قادتهم في الجيش، وتحركاتهم في ميدان المعركة، وكيفية التَّعامل مع خَصمهم، ونفَّذها في معركة أَبلستين[٢٩] سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٧ م[٣٠].

كما رتَّبت الياسَةُ للعساكر أمراءً، وجعلتهم أُمراءَ أُلوف، وأُمراءَ مئات، وأُمراءَ عشرات، وهذا النِّظام عُرِف بـ«النِّظام العَشْرِيّ»[٣١]، وطبَّقه المماليك عبر تقسيم جيشهم إلى فِرقٍ مختلفة، تتكوَّن من عشرات يرأسهم أُمراء العشرات، وإلى مئاتٍ يرأسهم أُمراء المئين، وإلى أُلوفٍ يرأسهم مُقدَّمو الألوف، وإلى عشرات الألوف يرأسهم القائدُ العامُّ، على غِرار الجيش المُغُولي. واحتكموا إلى «الحاجب» (القاضي العسكريّ) فيما اختلفوا فيه من عاداتهم المُغُوليَّة، على مقتضى ما جاء في «الياسَة»، كما جعلوا إليه النَّظرَ في قضايا الدواوين السُّلْطانيَّة عند الاختلاف في أمور الإقطاعات؛ ليُنفِّذ ما استقرت عليه أوضاع الدِّيوان وقواعد الحساب التي نصَّت عليها «الياسَة»[٣٢].

تأثر الجيش المملوكي بخطة الجيش المُغُولي في حشد قواته وتسييرها إلى الأماكن الخطرة، وتوحيد عملها في المواجهة؛ إذ إنَّ المُغُول لمّا اجتاحوا بَغْدادَ سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م جمعوا تشكيلاتهم المُحارِبَة من جميع البلاد؛ لتكون على اتصال مباشر وقريب من مركز القيادة العامَّة للجيوش المُغُوليَّة، وفي معركة عَيْن جالُوت سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م واجههم المماليك بالخطة نفسها؛ حيث جمع المُظَفَّر قُطُز (٦٥٧ - ٦٥٨ هـ/ ١٢٥٩ - ١٢٦٠ م) جيشَه من مختلف أنحاء الدِّيار المِصْريَّة، وأرسل إلى بقايا الأيُّوبيين في الشّام ليحشدوا كُلَّ الإمكانات المتاحة لديهم، ثُمَّ التقت هذه التشكيلات جميعُها على أمر المعركة، وسارت على الساحل كتلةً واحدةً لتُطبِّق خطة الجيوش المتلاقية، وفي الوقت ذاته كان المماليك قد توصَّلوا إلى اتفاقٍ مع الفِرِنْج في عَكّا على التزام جانب الحياد؛ لتسهيل مسير الجيش عند مروره قُرب مدينتهم، وهم بذلك قد اتَّبعوا سياسة التَّحييد والتَّفرُّد بالأعداء كُلٍّ على حِدَة[٣٣]. ونفَّذ الظّاهِر بِيبَرْس هذه الخطة عند فتح إمارة أَنْطاكيَّة سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨ م[٣٤].

وتأثر الجيش المملوكي بنظيره المُغُولي فيما يتعلق بعمليات تعبئة الجيش وتحركاته من حيث تطويق سائر قوات الخَصم، والإحاطة بها من جميع الجهات، مُتَّخذين في ذلك نظام الحَلْقَة التي اعتاد المُغُول نصبها للإيقاع بالوحوش، وساروا عليها في الإيقاع بخصومهم[٣٥].

ومن التأثيرات الحربية التي أخذها المماليك عن المُغُول وضع مجموعاتٍ قتالية في الوسط، مهمتها إعاقة تقدُّم القوات المعادية وجذبها والتَّحرُّك التضليلي، ووضع مجموعاتٍ على الأطراف للقيام بالهجمات المعاكسة ونصب الكمائن المفاجئة للخَصم، ومجموعاتٍ أخرى تتمركز في الخلف تُشكِّل مع القوة المنسحبة أمام الخَصم قوةً رئيسيةً تقوم بالالتفاف القريب والبعيد على جيش الخَصم ومؤخرته، وهذا ما يُسمَّى بعمليات الدفاع المتحرك والانسحاب الخداعي ثم الالتفاف والتطويق، وطبَّق هذه

الخطةَ المَنْصُورُ قلاوون في معركة حِمْص «الثانية» سنة ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م، ثم طُبِّقت في عهد ابنه النّاصر مُحَمَّد بمعركة شَقَحَب «مَرْج الصُّفَّر» سنة ٧٠٢ هـ/ ١٣٠٢ م[٣٦].

وممّا أخذه المماليك عن الجيش المُغُولي استباق السيطرة على النقاط والمواقع الجوهرية عبر اتخاذ سلسلةٍ من الإجراءات عند تحرُّكه للقتال، كشقِّ الطرقات وتمهيدها وصيانتها، ونصب الجسور، وتأمين مصادر المياه والمَراعي، ومن ثَمَّ وضع الحراسات عليها، وترك علاماتٍ كالأعمدة على بعض المواقع؛ كي تهدي الجيش في أثناء سيره، خاصةً في أيام الضباب والأمطار[٣٧].

يجدر بالذكر أنَّ التأثيرات المُغُوليَّة على فنِّ الحرب المملوكي وصلت إلى حد إطلاق مسمياتٍ مُغُوليَّةٍ على معسكرات الجيش المملوكي التي كانت تُنصَب في ميادينِ القتال إبّان صراعهم مع الفِرِنْج والمُغُول في بلاد الشّام وآسيا الصغرى، فمثلًا كان يُطلَق اسم «الوطاق» - أصله المُغُولي «أوتاق»، ويعني الخيمة -، على المعسكر الذي كان ينزل به الجيش المملوكي، وظلت هذه الكلمة تُستعمَل حتى نهاية دولتهم بمصْر والشّام. كما كانت تُطلَق كلمة «تشلاق» على الأماكن التي كانت تُقام بها المعسكرات المملوكيَّة، وهي كلمةٌ مُغُوليَّةٌ أطلقوها على الأماكن التي تُقام بها خيام معسكرات جيوشهم في فصل الشتاء[٣٨].

واستخدم الجيش المملوكي «السِّهام الخَطائيَّة»؛ نسبةً إلى طائفة «الخَطا[٣٩]»، وهي سِهامٌ عِظامٌ يُرمَى بها عن قسي عِظام، تُوتَر بلولبٍ يُجَرُّ بها ويُرمَى عنها فتكاد تخرق الحجرَ، وكان يُوضَع في رءوسها كتلٌ محترقةٌ، وتُقذَف على الخَصم تاركةً وراءها خطًّا ناريًّا[٤٠].

وأخذ الجيش المملوكي عن المُغُول الوافدين إلى مِصْر طريقة صناعة بعض الدُّروع؛ فالدِّرع والخوذة الموجودان بمتحف تاريخ الفنون في ڤيينا[٤١] (شكل ٢)، الخاصّان بأحد أُمراء المماليك، والمميزان بوجود قرصٍ معدنيٍّ مستدير كبير الحجم من الأمام والخلف، يرجع أصلهما إلى أشكال الدُّروع والخُوذ المُغُوليَّة[٤٢].

بل إنَّ الخوذة المُموَّهة بالذهب ذات سلاسل الزَّرْد - وهي للأمير خاير بك؛ نائب حلب، الموجودة بقصر طوب قابي بإسطنبول (شكل ٣) - التي تغطي الوجه عدا العينين كأقنعةٍ حديدية له، التي كان يرتديها المماليك في أثناء القتال، اقتبسوها عن المُغُول، وهذا تأكَّد من شكل الفارس المملوكي الذي يلبس خوذةً في الصورة المحفورة على معمدانية القديس لويس Baptistère de Saint Louis (شكل ٤)؛ إذ نشاهد الزَّرْد وهو يغطي وجهَه، مع ترك عينيه فقط مكشوفتين[٤٣].

(شكل ٢) درع بقرص معدني، في متحف تاريخ الفنون بڤيينا.

(شكل ٣) خوذة الأمير خاير بك؛ نائب حلب، بقصر طوب قابي بإسطنبول.

(شكل ٤) الزَّرْد يغطي معظم وجه الفارس المملوكي، بمعمدانية القديس لويس بمتحف اللوفر.

امتد تأثير المُغُول حتَّى إلى الملابس العسكرية لقادة وأمراء وجنود الجيش المملوكي؛ ففي عهد المَنْصُور قلاوون أُدخلت الأقبية التَّتَرِيَّة[٤٤] إلى الخدمة، ولبسها معظم الأمراء والمُقدَّمين وأعيان الجُند فوق ثيابهم[٤٥].

وقد أمر حاكم قلعة الرُّوم – الواقعة على نهر الفرات – جنودَه بارتداء ملابس المُغُول والتَّسلُّح بأسلحتهم من أجل إرعاب خصومهم[٤٦].

وهناك أصولٌ مُغُوليةٌ لنقش الطِراز المزخرف على الأكمام العليا للسترات التي يرتديها كبار أمراء الجيش[٤٧].

د- تأثيرات مَغربيَّة

أخذ المماليك عن المغاربة المقيمين بالإسكندرية القُدور الكَفِّيّات، وهي قُدورٌ خزفيةٌ في حجم الرُّمانة محشوة بالجير والنشادر والبول، وأطلقوا عليها اسم «الكَفِّيّات»؛ لأنَّها تُلقَى بالكَفِّ مثل القنابل اليدوية الآن Grenades، فإذا اصطكت بالفارس المُدرَّع، انكسرت وخرج منها غاز الأمونيا (النشادر) الذي يُسبِّب له اختناقًا، فيسهل التَّغلُّب عليه وإلقاؤه في البحر إذا كانت المعركة بَحريةً. وأعجب بها حاكم الإسكندرية الأمير سَيْف الدِّين الأكز النّاصريّ سنة ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٦ م، فأمر بصنع أحجام كبيرة منها؛ لتُلقَى بالمجانيق[٤٨].

كماً تعلَّم المماليك صناعة المجانيق المغربيَّة، واستخدموها في حروبهم؛ لأنَّها كانت مخصصةً لرماية الأحجار الثقيلة، إذ كانت تَرمي حجرًا وزنه مئة وأربعون رطلًا بالدِّمَشْقِيّ[٤٩].

هـ- تأثيرات في التصنيف في فنون القتال

إنَّ دولة سلاطين المماليك لم تنتجْ أعمالًا جديدةً عن علم الرماية حتى النصف الثاني من القرن الثامن/ التاسع الهجري (١٤/ ١٥م)، معتمدة على الأعمال السابقة التي أُلِّفت في العصر العباسي. وحتى الكتاب الشهير الذي صُنِّف في منتصف القرن الثامن الهجري (١٤م) عن فنون الرماية على يد ابن مَنْكَلِي اعتمد على كتاب «الإفادة والتبصير لكل رام مبتدئ أو مهير» النص الخالد الذي يرجع إلى القرن السابع الهجَري (١٣م)، وأَلَّفه شخصٌ مغربيٌّ اسمه جمال الدين عبد الله بن ميمون المتوفَّى في أواخر القرن السابع الهجري (١٣م). أما أول عمل مملوكي فعلًا فقد كان على يد عَلاء الدّين طَيْبَغا الأشرفيّ البكلميشيّ اليونانيّ (ت ٧٩٧ هـ/ ١٣٩٥ م)، وعنوانه «بغية المرام وغاية الغرام فِي رمي السهام»، ركَّز فيه على رماية الفرسان، واستخدام القوس الدِّمَشْقيَّة المُركَّبة[٥٠].

ترافق ظهور سلاح المدفعية واستخدامات البارود في أوروبا مع بداية انتهاء عصر جيوش العصور الوسطى التي اعتمدت على قواعد النظام الإقطاعي، وقيام جيوش جديدة في تسليحها وفي أنظمتها، وصارت صناعة الحرب في أوروبا الغربية حرفةً وعلمًا، ولم تَعد هوايةً، وكان من نتائج ذلك تصنيف بعض الكُتب في الحرب، لكنْ لم تُوقَف أيٌّ من هذه الكتب على موضوع المَدافع. وهو الأمر الذي لم يحصل في أوروبا، فأقدم ابن غانم الرياش الأندلسي (تُوفي بعد سنة ١٠٤٨ هـ/ ١٦٣٩ م)، على تصنيف كتاب كبير باسم «العزِّ والرفعة والمَنافِع للمجاهدين في سبيل الله بالمَدافِع»[٥١].

و- تأثيرات الحاكم المملوكي على فنون الحرب

في بعض الأحيان كان السُّلْطان المملوكي هو نفسه مصدر التأثير على جُنده، فالسُّلْطان النّاصر محمد بن قَلاوون حجَّ سنة ٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢ م، فحلق رأسَه كُلَّه، فلم يبقَ أحدٌ من الأمراء والعساكر حتَّى حلق رأسَه، ومن يومئذٍ مُنِعَ إرخاء العسكر ذوائب الشَّعر[٥٢]، واستمرَّ إلى يومنا هذا.

وفي أواخر حكم النّاصر محمد بن قلاوون - تحديدًا في سنة ٧٤١ هـ/ ١٣٤٢ م - اتخذ زيًّا بدويًّا، فاقتدى به جميع جُنده[٥٣].

ثانيًا: أسبقية المماليك في بعض فنون القتال

لا يعني ما سبق أنَّ جميع فنون الحرب في العصر المملوكي كانت وافدةً؛ فبعض الأسلحة اختُرعت في عهدهم، كطوربيد الرَّمّاح Rammah Torpedo (شكل ٥)، اخترعه المهندس نَجْم الدّين حَسَن الرَّمّاح، المعروف بالأحدب (ت ٦٩٥ هـ/ ١٢٩٥ م)، وسمّاه «البيضة»، وكان يصطدم بالسفن، ثم ينفجر[٥٤].

كما أن تَيْمُورلَنْك نقل بالإكراه كثيرًا من صُنّاع الأسلحة من دِمَشْق إلى سمرقند، فكان لهم أثرٌ واضحٌ في دولته؛ إذ ذكر السفير الإسباني دي كلافيخو Ruy González de Clavijo إلى تيمورلنك أنه في سنة ٨٠٣ هـ/ ١٤٠١ م وجد أكثر من ألف أسيرٍ من الصُّناع المهرة المجلوبين من بلاد الشّام في قلعةٍ بإحدى المدن الخاضعة لتَيْمُورلَنْك، شاهدهم وهم يعملون ليل نهار في صناعة الدُّروع والخوذ والأقواس والسِّهام[٥٥].

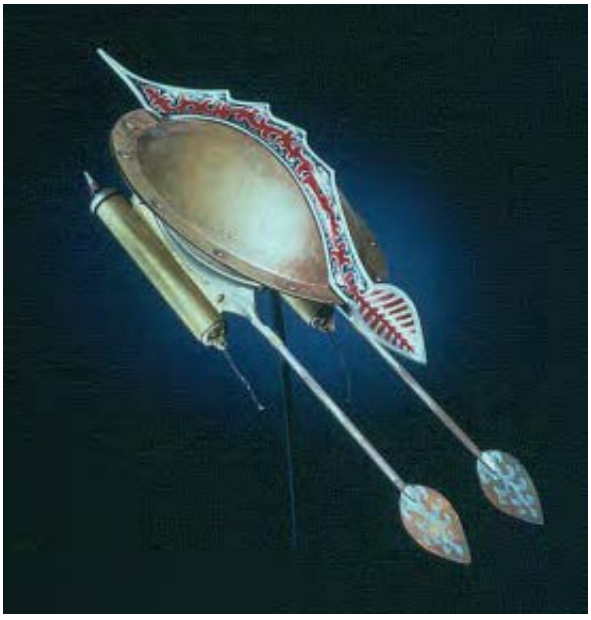

(شكل ٥) طوربيد الرَّمّاح.

وفي القرن التاسع الهجري (١٥م) حاول سلاطين المماليك استيراد الأسلحة والمواد الخام التي تصنع منها من أوروبا، وقد كان نقل تَيْمُورلَنْك لكثيرٍ من صُنّاع الأسلحة من بلاد الشّام إلى عاصمته سمرقند أحدَ الأسباب الرئيسية في ذلك. ففي سنة ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١ م اتُّهم التاجر الفرنسي جاك كور Jacques Coeur بشحن الدُّروع وسُترات الزَّرد والأسلحة التي كانت تضم البنادق والنشاب إلى دولة سلاطين المماليك، ومن ثَمَّ كان يُعفَى من رسوم الجمارك عند شراء الفلفل. كما اتُّهم أيضًا بأنَّه كان يرسل صُنّاع الأسلحة كي يدربوا صُنّاع دولة المماليك على تصليح الدُّروع المصنوعة على الطريقة الأوروبية[٥٦].

ولتفوُّق المماليك في مجال الفروسية، لم يكنْ مستغربًا أنْ نجد المماليك الهاربين يُرحَّب بهم من قِبَل جيرانهم، فعلى سبيل المثال في أوائل القرن التاسع الهجري (١٥م) ترك أحد المماليك - اسمه الأمير ألطنبغا، والمملوك السابق لنائب دمَشْق، والذي أصبح فيما بعد حاكم قُوص بصعيد مِصْر في عهد السُّلْطان المُؤيَّد شَيْخ - منصبَه، وخدم إمبراطور إثيوبيا إسحاق الأول (٨١٧ - ٨٣٢ هـ/ ١٤١٤ - ١٤٢٩ م)، وعرض عليه تدريب قواته على الرَّمي بالنشاب واللعب بالرمح والمبارزة بالسيف وآلات الحصار. وفي الوقت نفسه أيضًا وصل إلى إثيوبيا بعض المماليك الجراكسة الفارين، يقودهم أميرٌ اسمه الطبينغا، وكان من بينهم صانع دروع فأنشأ ترسانة لصناعة الأسلحة والدُّروع، وعلَّم أيضًا الإثيوبيين استخدام النِّفط أو النار الإغريقية، بل إن الإمبراطور إسحاق الأول نفسه اتخذ زيًّا فخمًا وعمامة خضراء؛ ليحاكي الزي المملوكي[٥٧].

ثالثًا: إهمال المماليك للتأثيرات الوافِدة في فنون الحرب

ليس دقيقًا تمامًا أنَّ المماليك كانوا مترددين في تبني استخدام أسلحة البارود الجديدة أو غير راغبين في الدخول في حرب بحرية. ففي واقع الأمر أخذ المماليك عن العثمانيين فكرة العربات التي تجرها الثيران والتي تحتوي على مسدسات يدوية ومدفع خفيف مصنوع من البرونز، وكان يوجد لدى المماليك من هذه العربات الحربية قرابة المائة. وفي معركة الريدانيَّة شمال شرق القاهرة سنة ٩٢٢ هـ/ ١٥١٧ م وضع المماليك مدافعهم خلف التحصينات الميدانية التي كانت تتكون من خندق مدعوم بجسر وضعت عليه البنادق. وفي هذه الحالة بالطبع كان المماليك - وليس العثمانيون - هم الذين تكبدوا خسائرَ مروعةً بسبب الأسلحة

النارية الحديثة التي كانت تمتلكها ثُلَّة من قوات النخبة العثمانية التي يبدو أنها سقطت من جراء أسلحة المماليك التقليدية[٥٨].

لكنْ لمّا أبى المماليكُ إدخال الأسلحة الناريَّة «المتطورة»[٥٩] التي يستخدمها العثمانيون في حروبهم، وتمسكوا بالسَّيف والرُّمح والأسلحة النارية «التقليدية» كالمَدافع في حربهم ضد إخوانهم من المسلمين، ذهبت ريحُهم في معركة مرج دابق في شهر رَجَب ٩٢١ هـ/ أغسطس ١٥١٦ م، وليس بسبب «القضاء والقدر»[٦٠] كما يرى ابن زُنْبُل الرَّمّال (المتوفى بعد سنة ٩٨٠ هـ/ ١٥٧٢ م).

فالسُّلْطان الملك الأَشْرَف قانصوه الغُوريّ رفض تحديث أسلحة جيشه ليقاوم العثمانيين بسلاحهم الفاتك والحاسم نفسه؛ إذ حقَّر الأمير كرتباي الوالي – أحد أمراء السُّلْطان طُومان باي – من شأن الجيش العثماني وسلاحه الناري «البندقية»، فقال للسُّلْطان سليم الأوَّل (٩١٨ – ٩٢٦ هـ/ ١٥١٢ – ١٥٢٠ م) لمّا وقع في أَسره: «فإنَّ المُلْكَ لا يَصلُح إلّا لمَنْ يكون من الأبطال المجنورة كما كان عليه السَّلفُ الصالح... وأمّا أنتَ فقد لفقت لك عساكرَ من أطراف الدُّنيا من نصارَى ومن أروام ومن غيرهما، وجئت بهذه الحيلة التي تَحَيَّلت بها الإفرنجُ لمّا أنْ عجزوا عن ملاقاة العساكر الإسلامية، وهذه هي البُنْدُق التي لو رَمت بها امرأةٌ لمنعت بها كذا وكذا إنسانًا»[٦١].

ففي نظر آخِر المماليك كانت البندقية والأسلحة النارية المتطورة سلاحَ العاجز الجبان، وسلاح الإفرنج الكفار، وسلاح مخالف للسُّنَّة النبويَّة. ويجدر بالذكر أنَّهم تركوا استخدامها لا عن انعدام كفاءة؛ فقد عرفوا مَدافع البارود قبل العثمانيين، واستخدموها في أُولَى معاركهم ضد الفِرِنْج بمعركة المنصورة سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م كما بيّنا سلفًا، بل كان قولهم لسليم الأول: «ونحنُ لو اخترنا الرَّمْي بها ما سبقتنا إليه، ولكنْ نحنُ قومٌ لا نترك سُنَّةَ نبينا مُحَمَّد»![٦٢].

أغرب من ذلك أنَّ السُّلْطانَ قانصوه الغُوريّ[٦٣] نفسَه لمّا جاءه أحدُ المغاربة ببندقية، وأخبره أنَّها ظهرت في بلاد البُنْدُق، واستعملها جميعُ عساكر الرُّوم والعرب، أمره أنْ يُعلِّمها لبعض مماليكه، ففعل، ثُمَّ جِيء بهم، فرموا بحضرته، لكنْ لم يعجبْه ذلك، وقال للمغربي: «نحنُ لا نترك سُنَّةَ نبينا ونتَّبع سُنَّة النَّصارَى»، مُحتجًّا بقول الله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾[٦٤]. فانصرف ذلك المغربي، وهو يقول: «مَنْ عاش، ينظر هذا الملكَ وهو يُؤخَذ بهذه البندقية»، وقد كان كذلك[٦٥].

لقد كان المماليك في آخر حكمهم، باعتمادهم على الحصان في ميدان القتال، وعدم استخدامهم البنادق؛ كالفارس دون كيخوته Don Quijote[٦٦]، يحاربون طواحين الهواء؛ فقال أحدُهم – وهو الأمير علان، الذي أشعل فتيل معركة الريدانيَّة بقتله رُسل سليم الأول – للسُّلْطان طُومان باي واصفًا جيش العثمانيين: «فإنَّه ليس عندهم معرفةٌ بالفروسية ولا ركوب الخيل، وإنما غاية ما عندهم الرُّماة بالبندق والمشاة؛ فنحن إذا صادمناهم ندكس عليهم دكسةً واحدةً، ندعكهم تحت أرجل الخيل»[٦٧]. فمعركتا مرج دابق والريدانيَّة كانتا حدًّا فاصلًا بين فرسان العصور الوسطى وفرسان العصر الحديث؛ إذ كانت البندقية تأخذ الرجل على حين غفلةٍ، لا يعرف من أين جاءته[٦٨].

وحتى المَدافع الضخمة التي حاول طُومان باي أنْ يستخدمها في معركة الريدانيَّة، دفنها في الرمل بمشورة الأمير قنبردي الغزالي، فلم يُرمَ شيءٌ من تلك المدافع المردومة مطلقًا، إلا رجل أخرس اسمه «مجنونه» رمى مدفعًا، وولّى هاربًا[٦٩].

وكانت البندقية سببًا في إصابة الأمير علان – أنف الذكر – في قصبة رِجله، فكسرتها، ودخلت في جنب الحصان، فمات الحصان لوقته، ثم مات بسببها هذا الأمير – وهو يحاول الهرب – في بلدة نُويرَة بإقليم البهنسا[٧٠].

أما الأمير كرتباي الوالي، فجاءته بندقيةٌ في فخذه، فأضرته، واختبأ عند رجل من أصحابه، إلى أن أمَّنه[٧١] سليم الأول، ولمّا طلب منه الأَخير الحديث بيَّن له أنَّه لولا البندقية ما انتصر عليهم. وعبَّر ابن زُنْبُل الرَّمّال عن أهمية استخدام البندقية في معارك العثمانيين قائلًا: «والنّار لا يقابلها أحدٌ، ولولا النّار التي مع السُّلْطان سليم ما غلبهم في الحرب ولا مَرَّة»[٧٢].

ثُمَّ بعد أن كان المماليك قاب قوسين أو أدنى من الانتصار على جيش سليم في المعارك التي أعقبت موقعة الريدانيَّة، هربوا بسبب ضرب البندق، وقالوا: «مَنْ يقابل هذه النار المُهلِكة»، ولمّا لجأ طُومان باي إلى عرب هَوّارَة في صعيد مِصْر، وطلب منهم النُّصرةَ، رفضوا، وقالوا له: «قد بلغنا أنَّ الرُّوم تقاتل بالنّار، ومَنْ يطيق النّارَ؟!»[٧٣].

ومِمّا جاء في قصيدة منسوبة لطُومان باي يُؤيِّد ذلك، مشيرًا إلى تفوُّق العثمانيين في استخدام البنادق:

وزَادَ الرَّمْيُ بالبارود حتَّى
حَسبتُ الرَّعْدَ مَحْلولَ الطَّلاقِ
وَأَطْبَقَ كُلَّ ناحِيَــةٍ وفَــجٍّ
وَأَشْعلَ بالمشقــةِ والدُّقَــاقِ[٧٤]

وفي المعركة الضارية التي وقعت ببَرِّ الجيزة، بقيادة الأمير شار بك الأعور، ضد جيش سليم، قاتَل المماليكُ قتالَ مَنْ لا يخشى الموت، إلّا أنَّهم شَكوا منَ أسلحة العثمانيين، بقولهم: «وإنما ضررنا من هذه النّار، وهذا البندق والرصاص... التي لو رموها على الجبال لأزالوها»، ولمّا سأله طُومان باي – الذي كان

نازلًا ببقية جيشه في بلدة الورّاق بالجيزة – عما حدث في المعركة، وعن أجناده، فأجاب بأنَّ: «ما شتتهم إلا هذه النار، التي يرمون بها، فما يشعر الإنسان إلا وهو مضروبٌ بها، وما يعرف من أيِّ جانبٍ جاءته؛ فإنَّ غالبَ عسكرنا لم يُقتَل منهم أحدٌ بالسيف إلا القليل»، وفي المعركة التي وقعت أحداثها في قرية أم دينار بالجيزة، قال الأمير شار بك يشجع جنوده: «فلا تخافوا من أحد، ولا يغرنكم كثرتهم، فإني وعزَّة الله تعالى لولا هذه النار التي معهم لقاتلتهم بنفسي، ولا اكترثتُ منهم أبدًا، فإني ما رأيتُ فيهم فارسًا أعجبني كرُّه وفرُّه، ليس لهم بأسٌ إلا بهذه المَدافِع والبندقيات»[٧٥].

الخاتمة

كانت دولة المماليك دولةً هاضمةً للتأثيرات الوافِدَة في أدوات القتال ومعداته، فالمماليك أنفسهم كان لهم أثرهم بحكم نشأتهم الأولى القائمة على الجَلادة والقوَّة في الحرب. وكانت هناك تأثيرات إفرنجيَّة ورُوميَّة كاستخدام قذائف النّار الإغريقيَّة، واتباع تعبية «حَوْض النَّجاة» في المعارك، واستخدام المَكاحِل أو المَدافِع لرمي السِّهام والحجارة والنِّفْط، واستخدام القُنْطارِيّات. علاوة على ذلك، أخذوا عن المُغُول المُستأمَنَة بعض أساليب التدريب والتأديب المتبعة في الياسة كالنظام العشري في ترتيب الجنود والسِّهام الخَطائِيَّة. ومن أبرز التأثيرات المغربية استخدام القُدور الكَفِّيّات والمجانيق المغربيَّة. لكن لمّا أهمل المماليك الأخذ بالجديد من أدوات الحرب ومعداته، سقطت دولتهم على أيدي العثمانيين.

أسلحة السلطان طومان باي. عن بريس دافين.

الهوامش

* باحث في التاريخ الإسلامي.

(١) القبجاق أو «القفجـاق»، هي منطقة السهوب بجنوب روسيا على أطراف وادي الفولجا، جاء منها المماليك البحرية، واشتهر سكانها الأتراك بالبداوة، وأُطلق عليهم «قبجـا» بمعنى الشُّجعان. انظر: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م)، **صُبْح الأَعْشَى في صناعة الإنشا**، مج. ٤ (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٢): ٤٥٦؛ إبراهيم الكيلاني، «مصطلحات تاريخية مستعملة في العصور الثلاثة الأيوبي والمملوكي والعثماني» ع. ٤٩ (دمشق: مجلة التراث العربي، أكتوبر ١٩٩٢): ٥٦-٥٧؛ بارتولد، **تاريخ الترك في آسيا الوسطى**، ترجمة أحمد السعيد سليمان (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦): ٥٣.

(٢) جلال الدين محمد الأمير القن بن محمود منكلي بوغا القاهري المصري الناصري (ت بعد ٧٧٨ هـ/ ١٣٧٦ م)، **الأدلة الرسمية في التّعابي الحربية**، تحقيق محمود شيت خطاب (بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٨): ١٧٦.

(٣) جمال الدين أبو عبد الله محمَّد بن سالم بن نصر الله بن سالم ابن واصل المازني التميمي الحموي (ت ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧ م)، **مُفْرِّج الكُرُوب في أخبار بَنِي أَيُّوب**، تحقيق جمال الدين الشَّيّال، مج. ٦ (القاهرة: جامعة فاروق الأول، ١٩٤٨): ١٦٢؛ تقيّ الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد الحسيني العبيدي المقريزي (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م)، **السُّلُوك لمعرفة دُول المُلُوك**، نشره محمد مصطفى زيادة، مج. ١، القسم ٢ (القاهرة: طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٦): ٣٥٠؛ محمد محمد أمين علي، **السُّلْطان الملك الصّالح نَجْم الدّين أَيُّوب ١٢٤٠-١٢٤٩م** (رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، ١٩٦٨): ١٦٤؛

Jean Sire De Joinville, *Life of St. Louis: King of France* (New York, NY: P. J. Kennedy, 1902): 67; Edwin John Davis, *The Invasion of Egypt in A.D. 1249 (A.H. 647) by Louis IX. of France (St. Louis), and a History of the Contemporary Sultans of Egypt*; (London: Sampson Low, Marston, 1897): 50.

(٤) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن سيف الدين تغري بردي الأتابكي اليشبقاوي الظاهري (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٧٠ م)، **النُّجُوم الزّاهِرَة في ملوك مِصْرَ والقاهِرَة**، تحقيق محمد رمزي بك، وإبراهيم علي طرخان، مراجعة محمد مصطفى زيادة، مج. ١٢ (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ١٩٧١): ٥١.

(٥) David Nicolle, *Mamluk 'Askari* 1250-1517, illustrated by Peter Dennis, Warrior 173 (Oxford: Osprey, 2014): 27.

(٦) القلقشندي، **صُبْح الأَعْشى**، مج. ٥: ٤٢٥-٤٢٦.

(٧) محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدي المصري (ت ٦٩٢ هـ/ ١٢٩٢ م)، **الرَّوْض الزّاهر في سِيرَة الملك الظّاهِر**، تحقيق عبد العزيز الخويطر (الرياض، ١٩٧٦): ٢٥١؛ ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري الناصري الخطائي الدَّوادار المصري (ت ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥ م)، **التُّحْفَة الملوكيَّة في الدولة التُّركيَّة**، نشر عبد الحميد صالح حمدان (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٨٧): ٦٢؛ قطب الدين أبو الفتح موسى ابن محمد بن أبي الحسين أحمد اليونيني البعلبكي (ت ٧٢٦هـ)، **ذيل مرآة الزمان**، مج. ٤ (حيدر آباد الدكن: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٤): ٢٤١؛ المَقْريزِيّ، **السُّلُوك**، مج. ٢: ٤٩.

Stéphane Pradines, *The Mamluk Fortifications of Egypt* (Cairo: The French Institute of Archaeology, 2012): 59-60.

(٨) كانت هذه الوقعة في يوم الأربعاء ٢٧ من شهر ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ بوادي الخزندار شمال شرق حِمْص على نحو فرسخين أو ثلاثة منها، انكسرت فيها ميمنة المسلمين، فتمت الهزيمة عليهم. انظر: بيبَرْس الدَّوادار، التُّحْفَة المُلُوكِيَّة: ١٥٧-١٥٨؛ شَمْس الدّين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق بَشّار عَوّاد معروف، مج. ١٥ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣): ٧٠٣-٧٠٤.

(٩) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، مج. ١٥: ٧١١؛ زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر بن مُحَمَّد بن أبي الفوارس الوردي المعري الشّافِعِي (ابن الوردي الجد، ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م)، **تاريخ ابن الورديّ**، مج. ٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦): ٢٤٠.

(١٠) Nicolle, *Mamluk 'Askari*: 25.

(١١) ابن تغري بردي، **النُّجوم الزّاهرة**، مج. ٧: ٣١١-٣١٢.

(١٢) بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن الحسين ابن يوسف بن محمود العينتابي الحنفي (البدر العيني، ت ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١ م)، **السَّيف المُهَنَّد في سيرة الملك المُؤَيَّد شَيْخ المحمودِيّ**، تحقيق فهيم محمد علوي شلتوت، مراجعة محمد مصطفى زيادة، ط. ٢ (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٩٨): ٢٣٠، ٢٣٣؛ ابن تغري بردي، **النُّجوم الزاهرة**، مج. ١٤: ١٠١؛ السيد الباز العريني، **المماليك** (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٦٧): ١٠١-١٠٢.

(١٣) زين العابدين أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي الناصري القاهري (ت ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٣ م)، **كتاب تاريخ مصر: المشهور ببدائع الزهور في وقائع الدهور**، مج. ٣ (القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية، ١٣١١ هـ[١٨٩٣-١٨٩٤]): ٣٥؛ محمود نديم أحمد فهيم، **الفنّ الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣): ١٦٧-١٦٨.

(١٤) هي كرات النَّفط، سُمِّيت بالنّار الإغريقيَّة؛ نسبةً إلى مخترعها المهندس الإغريقي كلينيكوس (Kallinikos)، الذي اخترعها في عهد الإمبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨-٦٨٥م)، وكانت مزيجًا من النَّفط والزيت والكبريت المُجمَّد بنوعٍ من الصمغ القابل للاشتعال، ثُمَّ يُوضَع هذا المزيج في أنابيب من النّحاس، لها فم يُوقَد منها، وفي مؤخرتها قوسٌ يدفعها بقوة الضغط إلى الأمام، وتُوضَع تلك الأنابيب النّحاسية بكمياتٍ كبيرةٍ في أسطوانة مائلة مستديرة، وتُلقَى في موقع المنجنيق، ثُمَّ تُقذَف على الخَصم فتُصليه نارًا حاميةً، انظر: محمد مصطفى زيادة، **حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة** (القاهرة: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٦١): ١٤١؛

Joinville, *Life of St. Louis*: 53.

(١٥) ابن واصِل، **مُفْرِّج الكُرُوب**، مج. ٦: ١٧٦؛

Joinville, *Life of St. Louis*: 47; Charles Oman, *A History of the Art of War in the Middle Ages* (London: Methuen, 1924): 346-347.

(١٦) أبو الفتح اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، مج. ١: ٣٦١؛ تقيّ الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد الحسيني العبيدي المقريزي، (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م)، **المَواعِظ والاعتبار في ذكر الخِطط والآثار**، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مج. ٣ (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٢-٢٠٠٤): ٤٨٨.

(١٧) ابن واصِل، **مُفَرِّج الكُرُوب**، مج. ٦: ٢٠٣؛ فهيم، **الفنّ الحربي**: ٨١.

(١٨) إذا واجهوا خيل الحَصم، فتحوا ثغرةً، وتظاهروا بالتَّراجع؛ ليعتقد الحَصم أنَّهم هُزِموا، فإذا كَرّوا وراءهم سدّوا الثغرة عليهم، وحصدوهم بالسيوف والخناجر والدبابيس، انظر: ابن مَنْكَلي المصري، **الأدلة الرسميَّة**: ١٩٧.

(١٩) ابن مَنْكَلي المصري، **الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدُّروب**، دراسة وتحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد (القاهرة: دار الكتب المصرية، ٢٠٠٠): ٣٠٩؛

R. C. Smail, *Crusading Warfare, 1097–1193*, 2nd ed, Cambridge Studies in Medieval Life and Thought: New Series (Cambridge: Cambridge University Press, 1994): 79.

(٢٠) يرى الدكتور عبد المنعم ماجد أنَّ أول استخدامٍ للمماليك لمَكاحِل البارود أو المَدافع كان في موقعة عَيْن جالُوت. وقد أثبت هذا الأمر صاحب كتاب «المخزون جامع الفنون»، انظر: عبد المنعم ماجد، **أضواء جديدة على معركة عين جالوت** (القاهرة: الجمعية التاريخية المصرية، ١٩٧٧).

(٢١) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العُمري (ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م)، **التعريف بالمصطلح الشريف** (القاهرة: مطبعة العاصمة، ١٨٩٤): ٢٠٨؛ القلقشندي، **صُبْح الأَعْشى**، مج. ٣: ١٣٧؛ ابن إياس، **بَدائع الزُّهور**، مج. ٣: ٥٥؛ علي جمعان الشكيل، «القذائف والأسلحة النارِيَّة في الحضارة الإسلامية»، **مجلة آفاق الثقافة والتراث بدبي**، ٤٢ (يوليو ٢٠٠٣): ١١٢-١١٣؛ جاسم محمد جاسم محمد، «الجيش وتطوره في العصر المملوكي خلال الفترة ٦٤٨-٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧ م»، **مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية** ١٤، العدد ٦ (يونية ٢٠٠٧): ١٧٥.

(٢٢) نوع من الرِّماح، يُصنَع من الخشب الزّان والشوح، ليست بالطويلة، اشتهر بصنعها الرُّوم، وأسِنّتها قِصار عِراض كهيئة البلطة، انظر: ابن واصِل، **مُفَرِّج الكُرُوب**، مج. ١: ١٨٣.

(٢٣) رينهارت دوزي، **تكملة المعاجم العربية**، ترجمة محمد سليم النعيمي، مج. ٨ (بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٩٧): ٣٩٧؛ أحمد مختار العبادي، **تاريخ العصر الإسلامي الوسيط** (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠١٣): ٢٩٢.

(٢٤) Nicolle, *Mamluk 'Askari*: 18-19, 35.

(٢٥) بيبرس الدَّوادار، **زُبْدَة الفِكْرَة في تاريخ الهِجْرَة**، تحقيق دونالد س. ريتشاردز، مج. ٤٢، سلسلة النشرات الإسلامية (بيروت: جمعية المستشرقين الألمانية، ١٩٩٨): ١٢٢، ١٣٠، ١٦٧، ٣٥٥، ٣٥٦؛ المَقْريزِيّ، **المَواعِظ والاعتبار**، مج. ٣: ٧١٦؛ المَقْريزِيّ، **السُّلُوك**، مج. ١: ٦٨٦، ٧٩٨؛ مج. ٢: ٨، ١٣؛ العريني، **المماليك**: ٥٧-٥٨؛ أحمد عبد الكريم سليمان، **العنصرية وأثرها في الجيش المملوكي** (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٨): ٣٥.

A. N. Poliak, "Le caractère colonial de l'État mamelouk dans ses rapports avec la Horde d'Or", *Revue des Études Islamiques* 9 (1935): 233; Nakamachi Nobutaka, The Rank and Status of Military Refugees in the Mamluk Army: A Reconsideration of the Wāfidīyah", *Mamlūk Studies Review* 10, no. 1 (2006): 55-56.

(٢٦) كانت هذه الوظيفة من أكبر وظائف الحاشية في قصور المُغُول، يقوم صاحبها بالحراسة الخاصة للخان، ويُلقَّب مَنْ يشغلها «يسول»؛ أي «الكبير»، انظر: ابن تغري بردي، **النُّجُوم الزّاهِرَة**، مج. ٧: ١٨٥.

David Ayalon, "Studies on the Structure of the Mamluk Army –I", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London* 15, no. 2 (1953): 69.

(٢٧) كانت هذه الوظيفة موجودة عند المُغُول في شكل أربعة أشخاصٍ يحملون السِّهام والأقواس وغيرها من الأسلحة التي تُقدَّم للجنود والقادة المُغُول وخاناتهم في المعارك، ثُمَّ بعد ذلك أُسندت إلى شخصٍ واحدٍ يُطلَق عليه لقب «قورچي»، انظر: فؤاد عبد المعطي الصياد، **المُغُول في التاريخ**، مج. ١ (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٠): ٣٥٩.

(٢٨) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨ م)، **كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، تحقيق بولس راويس (باريس: المطبعة الجمهورية، ١٨٩٤): ١١٤؛ القلقشندِيّ، **صُبْح الأَعْشى**، مج. ٥: ٤٢٨؛ ابن تغري بردي، **النُّجُوم الزّاهِرَة**، مج. ٧: ١٨٤-١٨٥؛ محمد راجح نصر الله، **التنظيمات العسكرية والفنّ الحربي عند المماليك** (رسالة دكتوراه، جامعة بيروت العربية، ٢٠١٦): ٣٨.

(٢٩) وقعت يوم الجُمُعَة عاشِر ذي القَعْدَة سنة ٦٧٥ هـ/ ١٥ إبريل ١٢٧٧ م في صحراء البُلُستين جنوب الأناضول، قُتِلَ فيها أكثر جيش التَّتار. وعنها، انظر: اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، مج. ٣: ١٨٦؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، مج. ١٥: ٢٠٥-٢٠٧؛ ابن فضل الله، **مَسالِك الأَبْصارِ في مَمالِكِ الأَمْصارِ**، أشرف على تحقيقه كامل سَلْمان الجبوريّ (بيروت: دار الكتب العلمية ٢٠١٠): ٢٨١-٢٨٢.

(٣٠) المقريزي، **المَواعِظ والاعتبار**، مج. ١: ٢٣٥-٢٣٦؛ مج. ٣: ٧١٤-٧١٦؛ ابن تغري بردي، **النُّجُوم الزّاهِرَة**، مج. ٧: ١٦٨، ١٨٢. (سنة نشر المجلد الأول هنا ٢٠٠٢) (لذلك عند ذكر الكتاب أول مرة نذكر سنوات نشر جميع أجزائه).

(٣١) وضعه جنْكيز خان – أي قبل قيام دولة المماليك بحوالي نصف قرنٍ –، وهو يتكوَّن من فرقٍ تتألَّف من عشراتٍ ومئاتٍ وعشرات أُلوفٍ، ويرأس كُلَّ فرقةٍ منها قائدٌ، ويأتمر الجميعُ بأمر جنْكيز خان ومَنْ تلاه من أبنائه. وكان يرأس العشرات قادةٌ يُسمّون «العرفاء»، ويُعيَّن على كُلِّ عشرة عرفاء واحدٌ منهم كقائدٍ أعلى على مائة – أو عشر عشرات –، ثم يُختار واحدٌ من بين الرؤساء العشرة لفصائل المئات ليكون قائدًا لهم، وبذلك يصبح قائدًا لألف رجلٍ، ثُمَّ يُنصَّب رجلٌ واحدٌ من بين مجموع رؤساء الألوف العشرة ليكون قائدًا عامًّا (أُطلِق عليه «نُويان أو نُوين بضم النون أو كسرها)، انظر: العيني، **عِقْدُ الجُمانِ في تاريخ أَهْلِ الزَّمانِ - عَصْرُ سلاطين المماليك ٦٤٨ - ٦٦٤ هـ/ ١٢٥٠ - ١٢٦٥ م**، حَقَّقه ووَضَعَ حواشيه محمد محمد أمين، مج. ١ (القاهرة: مركز تحقيق التراث ٢٠١٠): ٢٨٢؛ الصياد، **المُغُول**، مج. ١: ٣٦٠-٣٦١؛ سعد بن محمد حذيفة الغامدي، «الياسا: دراسة نقدية تحليلية واستنتاجية لبعض نصوصها»، **مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية** ٣٧ (١٩٩٨): ١١٧؛ محمد خالد عبد البرهاوي، «المضامين السياسية لقوانين الياسا وأثرها على قيام إمبراطورية المغول»، **مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية** ١٩/ ٥ (٢٠١٢): ٣٧١-٣٧٥؛ نسرين محمد شحاتة محمد، **الحياة**

السياسية والاجتماعية في الإمبراطورية المغولية طبقًا لقانون الياسا ٦٠٣ - ٧٣٦ هـ/ ١٢٠٦ - ١٣٣٥ م (رسالة ماجستير، جامعة المنيا، ٢٠١٧): ٢٥-٣١.

Francis Woodman Cleaves, "The Mongolian Names and Terms in The History of The Nation of The Archers by Grigor of Akanc̣", *Harvard Journal of Asiatic Studies* 12, no. 3/ 4 (1949): 431.

(٣٢) المَقريزي، **المواعظ والاعتبار**، مج. ١: ٢٣٥-٢٣٦؛ مج. ٣: ٧١٤-٧١٦؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، **المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك** (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٢): ١٨؛ العريني، **المماليك**: ٢٥٦؛ صلاح الدين محمد نوار، **الطوائف المُغُولية في مصر وتأثيراتها العسكرية والسياسية والاجتماعية واللغوية والعمرانية في عصر دولة المماليك البحرية ٦٥٨ - ٧٨٣ هـ/ ١٢٦٠ - ١٣٨١ م** (الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٩٦): ٦٢؛ نصر الله، **التنظيمات العسكرية**: ٦٠.

A. N. Poliak, *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon 1250-1900*, Prize Publication Fund 17 (London: The Royal Asiatic Society, 1939): 14; Poliak, "The Influence of Chingiz-Khān's Yāsa upon the General Organization of the Mamlūk State", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 10, no. 4 (Feb 1942): 862-863.

(٣٣) أو ما يُعرَف بـ «استراتيجية الخُرْشُوفَة»، وهو نوعٌ من النبات تُقطَع منه ورقةٌ كلما سنحت الفرصة بذلك، إلى أن يبقى ثماره بلا أوراقٍ، وعندها يكون جاهزًا للطهي، ويُشبِّه الكُتّاب العسكريون الأهداف العسكرية به، انظر: فهيم، **الفنّ الحربي**: ١٨٩.

(٣٤) ابن عبد الظّاهِر، **الرَّوض الزّاهر**: ٦٣؛ ابن واصِل، **مُفْرِّج الكُرُوب**، مج. ٦: ٤٠٩؛ **كتاب الحوادث**، تحقيق بشار عوّاد معروف، وعماد عبد السلام رؤوف (قُمّ: انتشارات رشيد، ١٩٩٦): ٣٤٩، ٣٥١، ٣٥٤-٣٥٥؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، **الظّاهِر بيبَرْس**، سلسلة أعلام العرب ١٤ (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، ١٩٦٣): ٣٢؛ السيد الباز العريني، **المُغُول** (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١): ٢٥٨؛

Amalla Levanoni, "The Ḥalqah in the Mamlūk Army", *Mamlūk Studies Review* 15 (2011): 37.

(٣٥) Poliak, *Chingiz-Khān›s Yāsa*: 872;

العريني، **المماليك**: ٢٥٦؛ نوار، **الطوائف المُغُولية**: ٨٦.

(٣٦) الصفيّ مفضل بن أبي الفضائل الأمجد بن أسعد بن أبي الفضل ابن إبراهيم بن يوحنا أبي بشر القبطي (ابن العَسّال، ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م)، **النَّهْج السَّديد والدُّر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد**، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي السيد (دمشق: دار سعد الدين، ٢٠١٧): ٢٦٦-٢٦٩؛ ابن تَغْري بَرْدي، **النُّجُوم الزّاهِرَة**، مج. ٧: ٧٩؛ محمد كرد علي، **خِطط الشّام**، مج. ٢ (دمشق: مكتبة النوري، ١٩٨٣): ١١٨؛ أحمد حطيط، **حروب المُغُول** (بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩٤): ٦٩.

(٣٧) أبو الفتح اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، مج. ١: ٣٥٠؛ رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفق الدولة الهمذاني (ت ٧١٨ هـ/ ١٣١٨ م)، **جامع التواريخ**، ترجمة محمد صادق نشأت، ومحمد موسى هنداوي، وفؤاد عبد المعطي الصياد، مراجعة وتقديم يحيى الخشاب، مج. ٢، ج. ١، الإيلخانيون: تاريخ هولاكو (القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي. الإدارة العامة للثقافة، ١٩٦٠): ٣١٤.

(٣٨) بيبَرْس الدَّوادار، **التُّحْفَة المملوكيَّة**: ١٣٠، ١٣٦؛ نوار، **الطوائف المُغُولية**: ٧٠-٧١.

(٣٩) يُطلَق عليهم أيضًا «الخَطَائِيَّة» أو «القَره خَطا»، وهم جِيلٌ من التُّرك القريبين من بلاد الصين، سيطروا على بلاد ما وراء النَّهر، وأقاموا دولةً لهم في إقليم كرمان ما بين مملكة الخُوارزميين في الغرب ودولة التَّتار في الشرق، وكان نهر سيحون الحدَّ الفاصِلَ بينهم وبين الخُوارزميين، وفي سنة ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م قضى السُّلْطان عَلاء الدّين مُحَمَّد على دولتهم. انظر: ابن تَغْري بَرْدي، **النُّجوم الزّاهِرَة**، مج. ٦: ٣٦٠؛ الصياد، **المغول في التّاريخ**، مج. ١: ٢٢؛ عبد الستار مطلك درويش، **الإمارة الغوريَّة في المشرق «دراسة في أحوالها السياسية والحضارية»** (عَمّان: دار عالم الثقافة، ٢٠١١): ١٤٣.

(٤٠) القلقشندِيّ، **صُبْح الأَعْشى**، مج. ٢: ١٤٤؛ ابن تغري بردي، **النُّجوم الزّاهِرَة**، مج. ٦: ٣٢٠؛ مج. ١٣: ٨٢-٨٣.

(٤١) Kunst Historisches Museum Wien: HJRK-C-85.

(٤٢) ليو ماير، **الملابس المملوكية**، ترجمة صالح الشيتي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢): ٣٤، ٤٠؛ نوار، **الطوائف المُغُولية**: ٥١.

(٤٣) ماير: ٧٦-٧٧؛ نوار: ٨١-٨٢.

(٤٤) الأقبية التَّتَرِيَّة لها كمران يلفا الصدر من اليسار إلى اليمين، بدلًا من عمل الشقة المستقيمة التقليدية للقمصان التي كانت تلبس في العصر الفاطمي. وكانت هذه الأقبية تُصنَع من الصوف والأطلس والحرير، أو القطن البعلبكي، وكان لونها إما أبيضَ وإما مُزيَّنًا بأشرطة باللونين الأحمر والأزرق، ويُطلَق عليها اسم «المُشَهَّر»، ولها أكمامٌ ضيِّقةٌ، انظر: ماير، **الملابس المملوكيَّة**: ٢٥.

(٤٥) القلقشنديّ، **صُبْح الأَعْشى**، مج. ٤: ٤٠.

(٤٦) Nicolle, *Mamluk ʻAskari*: 35.

(٤٧) Nicolle, *op.cit*., 36.

(٤٨) محمد بن قاسم بن محمد النويري الإسكندراني (ت بعد ٧٧٥ هـ/ ١٣٧٣ م)، **كتاب الإلمام: بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية**، تحقيق إتيين كومب، وعزيز سوريال عطية، مج. ٢، السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية ٩/ ١٣/ ٣ (حيدر آباد الدكن: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٨-١٩٧٦): ٢٠٦؛ السيد عبد العزيز سالم، **تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي حتى الفتح العثماني** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦١): ٣٥٧.

(٤٩) ابن تَغْري بَرْدي، **النُّجُوم الزّاهِرَة**، مج. ٦: ٣٢٩.

(٥٠) Nicolle, *Mamluk ʻAskari*: 44, 46.

(٥١) عبد الرحمن زكي، **ابن إياس واستخدام الأسلحة النارية في ضوء ما كتبه في كتاب «بدائع الزهور»** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣): ١٠٨-١٠٩.

(٥٢) القلقشنديّ، **صُبْح الأَعْشى**، مج. ٤: ٤٠؛ المقريزي، **السُّلُوك**، مج. ٢، القسم ١: ١٤٨.

(٥٣) Nicolle, *Mamluk ʻAskari*: 35.

(٥٤) James Riddick Partington, *A History of Greek Fire and Gunpowder*, foreword by Frederick Morgan, introduction by Bert S. Hall (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1960): 203.

(٥٥) Nicolle, *Mamluk 'Askari*: 39-40.
انظر أيضًا: أبا محمد أحمد بن محمد بن عبد الله الدِّمشقي (ابن عربشاه، ت ٨٥٤ هـ/ ١٤٥٠ م)، **عجائب المقدور في نوائب تيمور**، تحقيق علي محمد عمر (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩): ١٧٥-١٧٧.

(٥٦) Nicolle, *op.cit.*, 40.

(٥٧) أبو البشر ساويرس بن المقفع الكاتب (ت قبل ٤ هـ/ [٩٧٥ م])، **تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة**، تحقيق عبد العزيز جمال الدين، مج. ٢، ج. ٣ (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٢): ١٥٨٩؛

Nicolle, *Mamluk 'Askari*: 50.

(٥٨) Nicolle, *op.cit.*, 54.

(٥٩) هناك أسباب أخرى منها أنَّه في أعقاب فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣ م منع السُّلْطان محمد الفاتح سفنَ تجار البندقية وجنوة من نقل الرقيق من السهوب الأوراسية عبر البوسفور والدردنيل، ومن جرّاء ذلك لحقت بالجيش المملوكي أضرارٌ جسيمةٌ في غضون عقودٍ قلائلَ، كما أضرَّ كثيرًا بتجارة التَّوابِل التي كانت تُشكِّل مَوردًا مهمًّا يستطيع من خلاله سلاطين المماليك شراء مماليك جُدد، انظر: المرجع السابق: ١٥.

(٦٠) أبو الحسن أحمد بن علي بن نور الدين المحلي الشافعي (ابن زُنبل الرمال، ت بعد ٩٦٠ هـ/ ١٥٥٤ م)، **آخِرَة المماليك: أو واقعة السُّلْطان الغوريّ مع سليم الثاني**، تحقيق عبد المنعم عامر، ط. ٢، الألف كتاب الثاني. الأعمال المختارة (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨): ٨٢، ٩٦-٩٧، ٩٩-١٠٠، ١٠٨؛ جوليا براي، **الكتابة وأشكال التعبير في إسلام القرون الوسطى**، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥): ٤٧؛ أحمد الشرقاوي، «مَن الذي هزم المماليك: رؤية ابن زُنْبُل الرَّمّال»، **مجلة العربي**، العدد ٧١٠ (يناير ٢٠١٨): ١١٤-١١٩.

(٦١) ابن زُنبل الرمال، **آخِرَة المماليك**: ١٣٩.

(٦٢) المرجع السابق؛
Hassanein Rabie, "The Training of the Mamlūk Fāris", in *War, Technology and Society in the Middle East*, edited by V. J. Parry and M. E. Yapp, School of Oriental & African Studies (London: Oxford University Press, 1975): 163.

(٦٣) ذكر ابن إياس أنَّ السُّلْطان قانصوه الغُورِيّ نزل إلى قُبَّة الهواء خلف قلعة الجبل في شهر رَجَب سنة ٩١٣ هـ/ نوفمبر ١٥٠٧ م، وشاهد تشغيل وتجريب مَدافِع مصنوعة من النحاس، انظر: ابن إياس، **بَدائِع الزُّهور**، مج. ٤: ١٢٣.

(٦٤) «سورة آل عمران»، **في القرآن الكريم**: الآية ١٦٠.

(٦٥) ابن زُنبل الرمال، **آخِرَة المماليك**: ١٤٠.

(٦٦) ثربانتس، **دون كيخوته**، ترجمة عبد الرحمن بدوي (دمشق: دار المدى، ١٩٩٨).

(٦٧) ابن زُنبل الرمال، **آخِرَة المماليك**: ١٢٠-١٢١.

(٦٨) المرجع السابق: ١٢٥.

(٦٩) المرجع السابق: ١٢٧-١٣٠، ١٦٠، ١٧٠، ٢٠٥؛ محمد مصطفى زيادة، **نهاية السلاطين المماليك في مصر**، مج. ٤، ع. ١ (القاهرة: الجمعية التاريخية المصرية، مايو ١٩٥١): ٢٢٤.

(٧٠) ابن زُنبل الرمال، **آخِرَة المماليك**: ١٣١، ١٣٣.

(٧١) لم يفِ السُّلْطان سليمٌ بوعده بالأمان له؛ إذ قتله في حضرته، انظر: المرجع السابق: ١٤٥.

(٧٢) المرجع السابق: ١٣٧، ١٣٩، ١٤٥.

(٧٣) المرجع السابق: ١٣٦، ١٤٥.

(٧٤) المرجع السابق: ١٦٦.

(٧٥) المرجع السابق: ١٩٢، ٢٠١، ٢٢١.

The Memory of Arabs

Peer-reviewed Journal – Fifth Edition – 2021

ISSN 2735-4210

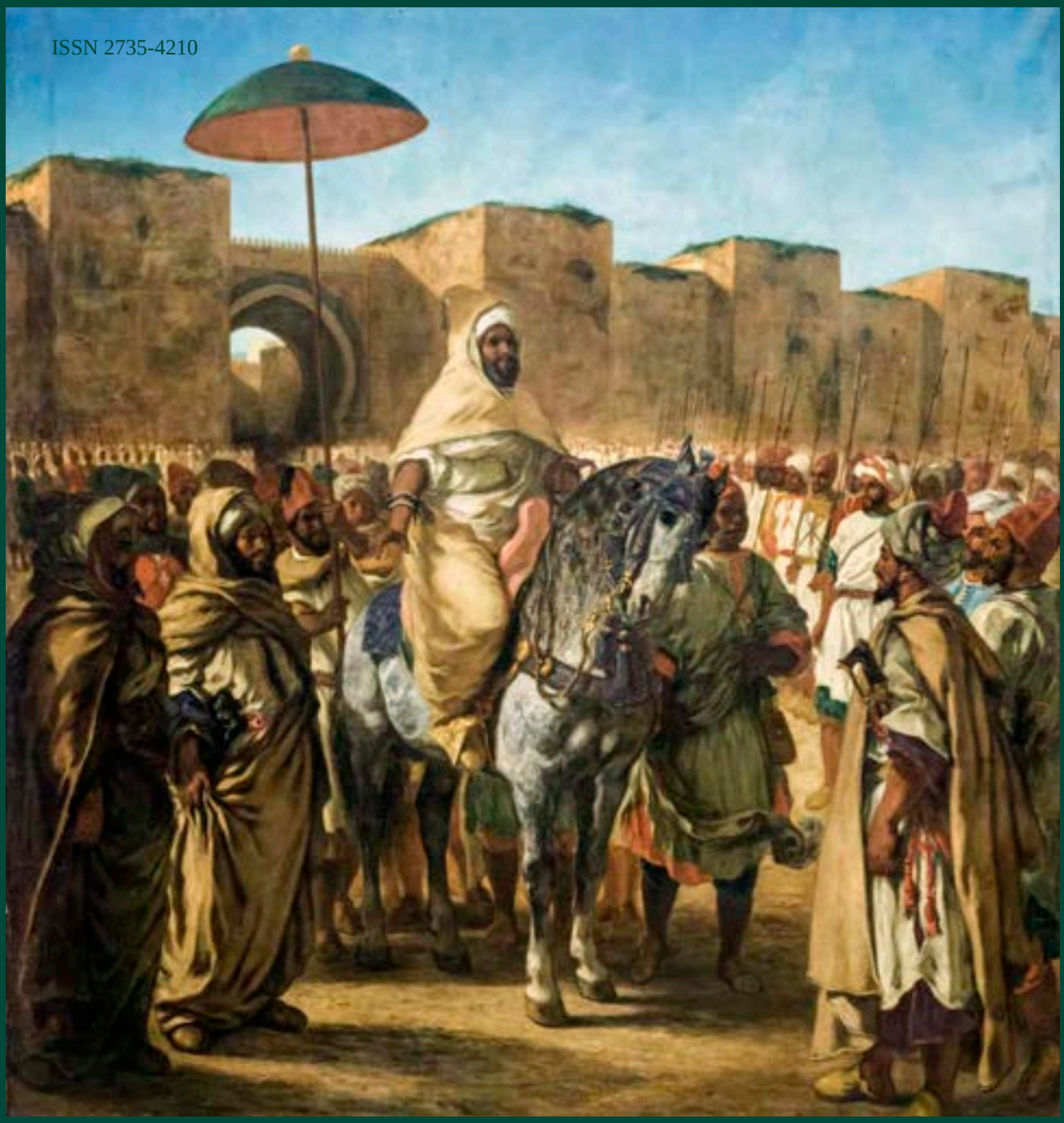

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية